الحــرب

كانت الحرب عند الجاهليين شرعة في الحياة ومورداً من موارد الرزق. وكان الحق عندهم للقوة، كما كان الشأن عند جميع الأمم في جميع العصور إلى اليوم.

إن القوي في الجاهلية كان يغزو من شاء متى شاء، وكان يحمي الماء والعشب إذا شاء. وكذلك كانت القبائل القوية - إذا وردت الماء - في الأيام العادية - تشرب وتسقي أنعامها قبل القبائل الضعيفة. ففي معلقة عمرو بن كلثوم:

ونشرب، إن وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدراً وطيناً

كان حب القتال مغروساً في نفوس العرب في الجاهلية، حتى تحول إلى شغف بالسيطرة، والغلبة عن طريق البغي والبطش والمبادرة بالعدوان، ولا يمكن التوصل إلى الحق والسيطرة إلا عن هذا الطريق، ويعبر عمرو بن كلثوم عن ذلك في قوله:

إذ ما الملك سام الناس خسفاً أبينا أن نقر الذل فينا
لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا
بغاة ظالمين وما ظلمنا ولكنا سنبدأ ظالمينا

وقد ذهب العرب في الجاهلية إلى اعتبار الظلم والبغي الطريق الوحيد الذي يصل المرء بواسطته إلى الحق، فالحق هو القوة أو الحق في جانب القوة، وفي هذا المعنى الفلسفي العميق يقول زهير بن أبي سلمى في معلقته:

ومن لم يذُد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

وفي سبيل التوصل إلى الحق استطاب العربي الموت في ساحة الوغى، وازدرى الموت حتف الأنف، وأنف منه، فالميتة الكريمة هي أن يموت الرجل في ميدان الحرب، ويعبر عمرو بن معديكرب عن هذا المعنى بقوله:

وقرب للنطاح الكبش يمشي وطاب الموت من شرع وورد

ولفظة (الحرب)، وتجمع على حروب، هي اللفظة الشائعة المعروفة عند العرب للخروج لمحاربة العدو والاصطدام به. وهناك لفظة أخرى هي (غزو) وتعني الخروج لمحاربة العدو. فهي في معنى الحرب والغزو.

والعرب تقول: الحرب غشوم، لأنها تنال غير الجاني، وتصيب أناساً لا علاقة لهم بها، ولا صلة، فهي لا تعرف التفريق بين الجاني ومن لا ذنب له[1].

وترد لفظه (خمس) (خميس) في العربيات الجنوبية بمعنى الجيش. وذكر بعض علماء اللغة أن العرب سمت الجيش خميساً لأنه مكون من خمس فرق: المقدم والقلب والميمنة والميسرة والساقة[2]. وقالوا: بل سمي الجيش خميساً لأنه يخمس فيه الغنائم. والظاهر أن الأصل في (الخميس) الجيش المنظم الكبير الذي يحارب بإمرة وبنظام.

ويعبر عن الجيش بلفظه أخرى هي: عسكر و(العسكر). وأما الموضع الذي يعسكر فيه فهو (المعسكر).

ويطلق الجاهليون على الجيش الكثير الذي لا يسير إلا زحفاً من كثرته (الجرار)، ويطلقون على الجيش العظيم (الجحفل). ويقولون (جيش الجيش) و(جيش فلان الجيوش) للتعبير عن التعبئة وتحضير المحاربين لقتال العدو[3].

وللعرب آداب وقواعد في الحرب، يطلبون من المحاربين اتباعها لكسب الحرب. قيل لأكثم بن صيفي: صف لنا العمل في الحرب، قال: أقلوا الخلاف على أمرائكم، فلا جماعة لمن اختلف عليه. واعلموا أن كثرة الصياح من الفشل، فتثبتوا، فإن أحزم الفريقين الركين، وربّ عجلة تعقب ريثاً، وأدرعوا الليل، فإنه أخفى للويل، وتحفظوا من البيات (القتال في الليل)[4]. وقال عتبة بن ربيعة يوم بدر لما رأى عسكر رسول الله (ﷺ): أما ترونهم خرساً لا يتكلمون، يتلمظون تلمظ الحيات.

وتقول العرب: إن الشجاعة وقاية والجبن مقتلة. واعتبر من ذلك أن من يقتل مدبراً أكثر ممن يقتل مقبلاً. وتقول أيضاً: الشجاع موقى، والجبان ملقى. فاستقبال الموت

١- الدنيوري، عيون الأخبار: ١٢٧/١.

٢- اللسان: ٧٠/٦.

٣- جواد علي: ٤٠١/٥-٤٠٢.

٤- الدينوري: عيون الأخبار: ١٠٨/١.

عندهم، خير من استدباره. ولم يكونوا يهتمون بالكثرة قدر اهتمامهم بالألفة بين المحاربين، وبالعمل يداً واحدة وكأنهم بنيّة مرصوصة.

قيل لعنترة: كم كنتم يوم الفروق. قال: كنا مئة، لم نكثر فنتكل، ولم نقل فنذلّ.

وللحرب عند الجاهليين أسباب عديدة، يدخل في ضمنها ضنك العيش في البادية مما يحمل القبائل على التناحر والتقاتل فيما بينها للحصول على الماء والكلأ، وهما عماد الحياة في البادية، أو الحصول على غنيمة. ويعبر عن هذه الحروب بـ (الغزو). والواحدة (غزو)، وهي تعتمد على مبدأ المباغتة في الغالب.

أما الحروب الكبيرة التي تقع بين دول وحكومات. كما أن الغارة، هي غزو مفاجئ يفاجئ به العدو عدوّه، ليأخذ على غرّة، ولينتزع منه ما يجده عنده من مال.

وقد كانت القبائل تغير بعضها على بعض، ثم تتراجع حاملة ما حصلت عليه من غنائم وأسلاب، وقد ترجع، وهي مسلوبة مهزومة، في حالة تمكن من أريد إيقاع الغارة به من الدفاع عن نفسه، ومن تغلبه على المغير ورده خائباً على الأعقاب. وتكون الغارات في وجه الصبح في الغالب، حتى يؤخذ من يراد الإغارة عليه على حين غرة ويفاجأ بالغارة مفاجأة.

وتكون الغارة بالخيل على الأخص. يقال أغار على القوم غارة وإغارة، دفع عليهم الخيل. فتكون الغارة بالخيل في الأخص. ويقال أغار إغارة الثعلب، إذا أسرع ودفع في عدوّه. فالغارة غير الغزو والحرب، تكون سريعة في الغالب، يعقبها رجوع سريع.

ولا تقتصر الغارات على غارات قطعات الجيش على العصا والثوار، بل قد تقوم بها قبيلة على قبيلة، وقد يقوم بها أفراد، لأسباب مختلفة. وقد يقوم بها اللصوص والصعاليك، يغيرون على أحياء العرب وعلى السابلة للحصول على مغنم.

وكان بعض أصحاب الغارات يمعنون في الغارة فيبتعدون عن منازلهم، ويعدّون (بعد الغارة) نوعاً من أنواع الشجاعة والفروسية، ولما تكتنف المغير من أخطار ومهالك. وكان (مروان بن زنباع)، ويقال له: (مروان القرظ) من (مشهوري أهل الجاهلية في بعد الغارة).

وكانت الغارات والغزوات من أهم وسائل الإعاشة والحصول على مغانم بالنسبة للقبائل النازلة على حدود الحضارة أو على مقربة منها. مثل حدود العراق أو حدود بلاد الشام.

وتكثر الغارات في سني الجدب والقحط وانحباس المطر. فلا يبق أمام تلك القبائل للبقاء على حياتها سوى النزوح إلى أماكن أخرى مخصبة معشبة، ويؤدي ذلك إلى التقاتل مع القبائل الأخرى النازلة في تلك الأرضين، أو مع قوات الحدود التي تحاول رد تلك القبائل خشية غزوها للحضر أو لمن يقيم وراء الحدود من أعراب. لذلك استعملت حكومات العراق وبلاد الشام جملة وسائل لكبح جماع الأعراب الغزاة في جملتها حماية الحدود بـ (مسالح) بنيت في أطراف البوادي وفي نهايات الطرق التي توصل إلى الحضر، تضع بها قوات مقاتلة نظامية وغير نظامية من الأعراب أصحاب الإبل لمقاتلة الأعراب، وتقديم الأطعمة والميرة من المستودعات المقامة في (المسالح) و(القصور) إلى سادات القبائل لسد ما عندها من نقص في الطعام، وبإقامة إمارات عربية، تودع إليها أمور تأمين الأمن في البادية وحماية الحدود من غارات الأعراب[1].

وسار قادة الجيوش ومتولو إدارة المعارك على قاعدة (الحرب خدعة). ومعناها خداع العدو وإيهامه للتغلب عليه، كأن يشيع قائد الجيش أنه سيسلك الطريق الفلاني، فيرسل بالفعل قوة صغيرة، ، وهو يضمر على حسن خطة أخرى، بأن يأمر القوة الكبرى بسلوك طريق آخر، فيفاجئ العدو وهو غير متأهب، أو يؤخذ على غرة وهو لا يدري باحتمال قدوم الجيش من هذا المكان.

ولما كانت (المباغتة) من أهم وسائل كسب الحرب والحصول على الربح، كان من أهم أسباب نجاحها التكتم والتستر ومعرفة قوة العدو ومواضع ضعفه، عمد الجاهليون إلى استخدام العيون للتجسس على العدو، يرسلونهم في صور شتى، في صورة تجار أو مسافرين أو على هيئة سرايا صغيرة تقتص آثار العدو وتسأل من يرون من المسافرين عن علمهم بأحوال العدو، أو تقبض ربايا العدو ليحققوا معهم وليحصلوا منهم على معلومات تفيدهم في إعداد خطة الحرب أو

١- جواد علي: ٤٠٣/٥-٤٠٤.

الغزو. وفي ضوء هذه المعلومات يرتب القادة طريقة مباغتة العدو ومحاربته لإنزال الضربة القاصمة به.[1]

وكانوا إذا أرادوا حرباً، وتوقعوا جيشاً عظيماً، وأرادوا الاجتماع أوقدوا ليلاً على جبل أو أي مرتفع من الأرض ناراً، ليبلغ الخبر أصحابهم. وإذا جدوا في جمع عشائرهم إليهم أوقدوا نارين. وقد عرفت هذه النار بنار الحرب.

وحكومات اليمن والحيرة والغساسنة، تكاد تكون الحكومات الوحيدة التي ملكت جيوشاً مدربة نظامية، أي جيوشاً مستعدة في كل وقت للدخول في الحرب. فلكل حكومة من هذه الحكومات كتائب مدربة في استطاعتها القتال. وهي كتائب من الفرسان وكتائب من المشاة، ولها رؤساء يشرفون على تدريبها وتسييرها وقت القتال. وهي بإشراف ضباط يتولون قيادتها بأمر من الملوك.

أما أهل القرى والمدن، فكان لهم قوادهم وحملة رايتهم في الحرب، غير أننا لم نسمع بوجود جيش نظامي مدرب عندهم، ولم نسمع بوجود كتائب مقاتلة مستعدة للقتال أو للدفاع حين صدور الأمر إليها. بل كل ما وجدناه في كتب أهل الأخبار أن أسراً معروفة عهد إليها بحماية الراية والمحافظة عليها، فإذا وقع خطر، أخرج حفظتها تلك الراية ليرفعوها في القتال فتكون عندئذ شعاراً لهم وروحاً معنوية ذات أهمية، فإذا سقط حاملها أخذها غيره وهكذا كانوا يتناوبون في حملها. وسقوط الراية له أثر كبير في معنويات المحاربين.

ويظهر من دراسة ما أورده علماء اللغة والأخبار عن تشكيلات الجيش عند بقية الجاهليين، إن الجاهليين لم يكونوا يسيرون على نظام معين في تكوين الجيش وفي عدد وحداته، بل كانوا يتركون أمر ذلك إلى الظروف وإلى رأي القادة الذين توكل إليهم أمور إدارة المعارك. وذلك لأنهم لم يكونوا يملكون جيوشاً نظامية ثابتة، فقد كانت القبائل تقاتل حين تدعى إلى القتال أو حين يقع غزو عليها، فيهب كل فرد منها للدفاع عن قبيلته، أو في المساهمة في الغزو، يشترك في ذلك النساء والصغار أيضاً، ولاسيما في حالات الدفاع عن النفس. حتى المدن والقرى لم يكن لها جيش ثابت،

١- جواد علي: ٥/ ص ٤٠٨.

ولا قادة يدربون المقاتلين على أساليب القتال، ولا وحدات ثابتة تقيم في ثكنات ومعسكرات. بل كان شأنها شأن القبائل، إذا هوجمت، هبّ أفرادها رجالاً ونساءً كهولاً وصغاراً في الدفاع عن مدينتهم، يقوم كل واحد منهم بدوره حسب طاقته وقدرته. وكذلك كان الحال في حالات الهجوم، أي حين تهاجم المدينة عدواً لها، يشترك في هجومها كل متمكن من القتال، قياماً بواجبه الأدبي المفروض عليه. وليس لهذا الجيش المحارب تدريب عسكري سابق، ولا وحدات معينة، إنما تكون أمرة سوقه وتسييره، بأيدي الشجعان الأذكياء: ومن سبق له أن برز في قتال سابق، وأبرز مكانه فيه.

وحتى في أيام الرسول لم يكن للمسلمين جيش ثابت منظم. إنما كان المسلمون كلهم جنوداً إذا دعاهم الرسول إلى القتال لبوا نداءه.

ويظهر من الشعر الجاهلي أن الأعراب كانوا يهابون من الالتحام بالجيوش النظامية، لعدم قدرتهم وكفاءتهم في مقابلتها، لما لها من تنظيم وتدريب وسلاح.

ولطبيعة بلاد العرب أثر كبير بالطبع في ظهور هذا التخلف الملحوظ في بناء القوة العسكرية. فمعظم أرض الجزيرة أراض سهلة منبسطة لا يجد منها أصحابها مواضع طبيعية يتحصنون بها في حالتي الدفاع والهجوم. لذلك صار القتال فيها وجهاً لوجه، والتغلب فيه للمحارب الشجاع الذي يملك وسائل الحرب السريعة من إبل وخيل وعدة. ثم أن الفقر العام الذي ساد جزيرة العرب آنذاك وفقرها من ناحية الموارد الطبيعية وتغلّب الجفاف والحرارة عليها، جعلت العرب كتلاً، أي شعوباً وقبائل، مشتتة مبعثرة، تعيش حول ما تجده من ماء ومن مورد رزق، وكأنها أمم متباينة، لضيق أفق المعيشة فيها، ولتقاتلها فيما بينها على الماء وموارد الرزق الشحيحة. وأوضاع مثل هذه لا تساعد على التجمع وعلى تكوين دولة قوية كبيرة، تجمع جيشاً قوياً مدرباً ذا عدّة وعدد، يستطيع الصمود أمام الجيوش المدربة النظامية التي تملكها الحكومات الفنية مثل حكومات البيزنطيين والفرس، التي غذّت جيوشها بالمال وبالجنود المحترفين المدربين على القتال وبالضبط المتخصصين بشؤون الحرب وبالعدد والعدة المتطورة وبالمال.

أما المقاتلون فهم متطوعون، تطوّعوا للقتال للدفاع عن مواطنهم، ومجبرون، عليهم الخروج للقتال لأنهم تبع، وقد أمروا به أمراً، ومن هناك الرقيق. ولم كان القتال بسيطاً لذلك كان واجب المقاتل متوقفاً على قابليته العقلية والجسدية.

وإذا عزمت قبيلة على غزو قبيلة أخرى وجب على كل بالغ سليم الغزو معها كما أن على كل فرد من القبيلة المهاجمة أن يقوم بواجبه في الدفاع عنها، وهذا واجب كل رجل في القرى والمدن أيضاً. فقد كان على رجال كل قرية أو مدينة الدفاع عن أنفسهم، ورد غزوات الغازين. لاستقلال كل قرية أو مدينة في أمورها وشؤونها، ووقوع كاهل الدفاع عن نفسها على عاتقها. وعلى كل مواطن لذلك. بدوي أو حضري أن يهيئ نفسه في أيام الحروب والغزوات للدفاع عن نفسه وعن مواطنيه، وأن يقوم بدور الجندي في هذه الأيام.

وقد يعقد بعض الرجال من الأغنياء، أو من المسنين عن المساهمة في الحرب أو الغزو، فيدفعون جعلاً في مقابل ذلك لرجال يحاربون عنهم، فيكون الجعل لهم، ويكون ما قد يقع في أيديهم من غنائم لهم أيضاً. وقد يتفق على ذلك بأن يجعل المقيم للغازي شيئاً. وقد كرهت الجعائل في الإسلام.

أما القبيلة التي تتعرض للغزو، فيقوم ذوو الرأي والخبرة العسكرية فيها بإعداد الخطط للدفاع عن نفسها، ورد الاعتداء عنها. وفي حالة الأحلاف يعد ذوو الرأي والخبرة العسكرية في الحلف خطط الهجوم أو الدفاع، ويشترك الحلف في إعداد المحاربين وقيادتهم.

والغالب أن الذي يقوم بقيادة المحاربين وتوجيههم في المعارك هم من أسر توارثت ذلك، وصارت القيادة وكأنها حق لها. فإذا وقع غزو، أو أرادت قبيلة ما غزو قبيلة أخرى، نهض رجال الرأي في الحرب بإعداد الخطة والتشاور في الرأي لكسب المعركة. وقد كانت قريش قد وكلت أمر حربها وقيادة محاربيها إلى (آل حرب). ولكن لا يعني ذلك عدم تغيير القادة وإبدالهم، وتعيين قادة جدد من أسر أخرى، فقد كانوا يفعلون ذلك أيضاً عند الضرورات[1].

وقد اضطرت القرى والمدن في جزيرة العرب إلى مهادنة القبائل القوية النازلة بقربها، وإلى محالفتها بدفع أتاوات لها في مقابل عدم التحرش بها وحمايتها من تحرش القبائل الأخرى الطامعة بها، وفي مقابل مرور قوافلها في أرضها. وبذلك أمنت على سلامتها وعلى أموالها بعقد هذه العهود والمواثيق.

١- جواد علي: ٥/٤١٨-٤٢٠.

ولضرورة الدفاع عن النفس، وللوقوف أمام طمع القبائل القوية في القبائل الضعيفة، اضطرت أكثر القبائل إلى التحالف والتكتل لمنع الغزو فيما بينها، وإلى مقاومة أي غزو يقع عليها. وقد أطلق العرب على كل قبيلة تحارب وحدها دون محالفة قبيلة أخرى (الجمرة). وذكر أن (الجمرة)، هي القبيلة التي لا يقل عدد فرسانها عن ثلاثمئة فارس، وهو عدد يدل على قوة القبيلة وشدة البأس.

وذكر الإخباريون أن (جمرات العرب) ثلاث: بنو ضبة بن أد، وبنو نمير ابن عامر، وبنو الحارث بن كعب. فطفئت جمرتان، وبقيت جمرة واحدة: طفئت بني ضبة لأنها حالفت الرباب، وطفئت بنو الحارث لأنها حالفت مذحج، وبقيت نمر لأنها لم تحالف.

والغالب على أسلوب القتال عند الجاهليين: الكرّ والفرّ، وذلك بأن يهاجم المحاربون عدّوهم ثم يتراجعون بسرعة وكأنهم قد فروا خوفاً منه، ثم يعودون فيكرون عليه. يضعون مكاناً يكون مركز ثقلهم والملجأ لهم، يلتجئون إليه، ثم ينطلقون منه للكر على العدو. وقد اتبعوا أيضاً أسلوب القتال صفوفاً، بأن يقف المحاربون صفوفاً، يحاربون دون كر ولا فر[1].

ولا بد للمحارب من أسلحة يحارب بها ويدافع بها عن نفسه. ويستعمل العرب لفظة سلاح وعدة المحارب في مقابل Arms = Armour في الإنكليزية. ويراد بها كل ما يستعمله ويحمله الجندي من وسائل الحرب من هجوم ودفاع.

والسيف هو السلاح الرئيس في القتال. استعمل في الهجوم وفي الدفاع عن النفس. وقد يكون السيف قصيراً أيضاً. وهو ذو حد واحد وذو حدين. وقد يكون رأسه مدبباً حاداً يستعمل للطعن. أما الضرب فيكون بحد السيف. والسيوف الجيدة هي السيوف المصنوعة من الفولاذ ومن الحديد النقي الجيد. وقد اشتهرت سيوف اليمن، وبعض السيوف المستوردة من الخارج. ويقال لحديدة السيف (النصل).

وللسيف أسماء كثيرة ترد في كتب اللغة، بعضها أسماء وبعضها نعوت وصفات صارت في منزلة الأسماء للسيف.

١- بلوغ الأرب: ٢/٥٦-٥٧.

وقد اشتهرت أنواع من السيوف عند العرب، تفاخروا بها، لجودتها وشدة وقعها في العدو. ومن هذه السيوف المشهورة: (السيوف المشرفية) قيل أنها سميت بذلك نسبة إلى (المشارف) جمع مشرف، ويراد بها قرى للعرب تدنو من الريف. وقيل: لأنها من مشارف الشام. وقيل: نسبة إلى موضع في اليمن. وقيل نسبة إلى (مشرف) رجل من ثقيف[1].

وعرفت سيوف (بصرى) بالجودة كذلك، ويقال للسيف المنسوب إليها (بصري).

واشتهرت السيوف المسماة بـ (السريجية) بجودتها كذلك، ويقال: إنها نسبة إلى (سريج) رجل من بني أسد. وهو أحد بني معرّض بن عمرو بن أسد ابن خزيمة وكانوا قيوناً (حدادين).

واشتهرت سيوف اليمن كذلك، فقيل للسيف (يمان) و(يماني)، إذا صنع باليمن. والظاهر أنها لماعة بيض، ولذلك قيل (بيض يمانية) يمدحون تلك السيوف. واشتهرت بعض السيوف في الجاهلية، وبقيت شهرتها خالدة في الإسلام. ومن هذه السيوف، سيف عرف بـ (الصمصامة)، وهو سيف عمرو بن معد يكرب.

وسيف عرف بـ (ذي الفقار) ارتبط اسمه باسم علي بن أبي طالب، وكان قد استولى عليه في معركة (بدر)، أخذه من العاصي بن منبه[2].

ويتبين من دراسة وتقصي مصادر السيوف عند العرب الجاهليين، أن العرب كانوا آنذاك يستوردونها من أماكن مختلفة، وأن استيرادها كان تجارة مربحة وأن تجارها كانوا يفتشون في كل مكان من أسواق العالم المعروفة بصنع وبيع الأسلحة لشراء الأسلحة منها. فاستورد بعضهم أنواعاً من السيوف من الهند. وقد عرف السيف الجيد المصنوع بالهند بـ (المهند). واشتهر الروم بصنع السيوف الجيدة، وكذلك الفرس.

وقد تفنن في تزويق السيوف وفي إكسائها بماء الذهب أو الفضة، وقد اشتهرت الروم بإكساء السيوف ماء الذهب، ويقال لذلك (الدجال).

١- بلوغ الأرب: ٢/٦٢-٦٣.

٢- جواد علي: ٥/٤٢٢-٤٢٣.

والخنجر أقصر من السيف، ويستعمل في المباغتة في الغالب وفي الهجوم وفي الدفاع عن النفس. وهو مثل السيف أيضاً ذو حدين، ويوضع في قراب يحمل في وسط الجسم. وهو لا يزال كثير الاستعمال لسهولة استعماله وإخفائه على حين قلّ استعمال السيوف، أو مات، لعدم ملاءتها للقتال الحديث.

والرمح: سلاح يستعمل لطعن العدو، يستعمله الفارس في الغالب. له رأس حاد يطعن به. وقد يكون له رأس آخر، يثبت به في الأرض. وهو يختلف طولاً ووزناً. وهو من الأسلحة القديمة، ولا يزال معروفاً، تستعمله بعض القبائل والشعوب البدائية. يصنع من حديد أو من معدن آخر، كما يكون من أعواد الأشجار القوية أو القصب القوي. وأجود الرماح عند العرب، (الرماح الآزنية)، أو (الرماح اليزنية)، يقال أنها نسبت إلى (ذي يزن) الملك[1]. وهو على رأي بعض الإخباريين أول من اتخذ أسنة الحديد، فنسبت إليه وإنما كانت أسنة العرب قرون البقر.

وعرفت الرماح ذوات السنان بالأسنّة. وهي أيضاً أنواع، منها نوع يسمى (الأسنة القعضبية) نسبة إلى رجل اسمه (قعضب) من (قُشير). ونوع يسمى (الأسنة الشرعبة)، ينسب إلى (شرعب). وإلى هذه الأسنة أشار الأعشى في هذا البيت:

ولدن من الخطّي فيها أسنةُ   ذخائر مما سنَّ أبزى وشرعب[2]

والرماح الخطية، من الرماح الجيدة المعروفة وتنسب إلى (الخط). والخط هو خط هجر، تحمل إليه الرماح من بلاد الهند، فتقوم به. فنسبت إليه. (والخط جزيرة بالبحرين تنسب إليها الرماح. قال الأطعمي: ليست تنبت الرماح لكن سفن الرماح ترفأ إلى هذا الموضع، فقيل للرماح: خطية)[3].

و(الرماح الردينية) وهي من الرماح الجيدة المشهورة أيضاً، يقال إنها نسبة إلى (ردينة) امرأة كانت تعمل الرماح.

وتستعمل (القنا) في القتال أيضاً. ويظهر أنها نوع من أنواع القصب القوي الذي لا ينثني ولا ينكسر، يكسى رأس القناة برأس من معدن مدبب حاد ليطعن به ويستعمل القناة الفارس والراجل.

١- بلوغ الأرب: ٦٤/٢.

٢- المصدر السابق، ٦٤.

٣- جواد علي: ٤٢٥/٥.

واستعملت الحراب في الطعن وفي زرق العدو بها. وقد ذكر أهل الأخبار أن الحبشة كانت تحسن الطعن بها، وأن العبيد المجلوبين منها والذين كانوا بمكة، كانوا قد اشتهروا بالطعن في الحراب، ومنهم (وحشي) قاتل حمزة. وهو عبد حبشي زرق حربته ورمى بها حمزة فأصابه.

وكما تعتمد الجيوش الحديثة على أسلحة الرمي، اعتمد الجاهليون على أسلحة هي بمنزلة البنادق والرشاشات في أسلحة هذه الأيام، هي القسي والسهام. والقوس هي الآلة التي تمسك باليد، ويشد وترها شداً قوياً، ليرمي السهم إلى العدو المراد رميه.

وكلما كان الشد قوياً صارت الرمية بعيدة مؤثرة. وقد يكون السهم من غصن أو من خشب، وقد يكون من معدن مثل حديد أو نحاس.

وقد عدّت الرماية من جملة الخصال العالية في الشخص المكملة للإنسان. وقد اشتهر في الجاهلية قوم بدقة رمايتهم، وبصحة إصابتهم الأهداف، إذا أرادوا رمي أحد أخرجوا النبل، فرموه بها، وقلما يخطئون. وإذا أرادوا وصف رجل بدقة الرمي، قالوا فيه: (كان من أرمى الناس). وكانت الرماية دراسة يتعلمها الرامي من رماة ماهرين. وقد كانت الجيوش تضم فرقاً من الرماة، تكون لهم أهمية كبيرة جداً في تقرير نهاية الحرب، لأنهم عنصر فعال قوي في التأثير في المحاربين.

وقد استعان الفرس والروم والرومان بالرماة الماهرين من العرب، فكوّنوا منهم فرقاً خاصة في جيوشهم، وظيفتها الهجوم على العدو ورميه بالسهام للفتك به.

واستعمل الصعاليك واللصوص السهام سلاحاً فتاكاً في ابتزاز المال وسلب المسافرين. والرامي الجيد الرماية، متغلب على خصومه، لأنه يرمي وهو على بعد ممن يرميه، فلا يصيبه سيف أو رمح. وبذلك صعب على من لا يحسن الرماية التغلب على الرماة.

وقد كان على المحارب التدرب على الرمي وعلى الطعن، ليكون محارباً ناجحاً، ذا خبرة في القتال، فلا يتمكن منه عدو بسهولة، وفي جملة الوسائل التي كان يتدرب عليها: (الدريئة)، وهي حلقة يتعلم عليها الطعن والرمي.

ولا بد للمحاربين من أسلحة واقية، يتقون بها ضربات أعدائهم. وما يرمونهم به من حجارة وسهام. والترس من أقدم الأسلحة الواقية، يعلقه المحارب على ظهره أو على

كتفه، فإذا احتاج إليه، أمسكه بإحدى يديه، ليتقي به ضربات خصمه. ويصنع من الحديد في الغالب، ولارتفاع ثمنه، لم يستعمله إلا المحاربون الشجعان المعرفون والمحاربون الموسرون. واستعمل الترس المصنوع من الخشب ومن الجلود الثخينة، مثل جلود الجمال والبقر وبعض أنواع الأسماك والحيوانات الوحشية ذوات الجلود الغليظة[1].

والدروع هي من أسلحة الوقاية، يتدرع بها المحارب، ليقي بها نفسه من ضربات خصمه. وقد تكون للظهر وللصدر، فتحمي ظهر المحارب وصدره. ويعرف أهل الأخبار الدرع بأنها القميص المتخذ من الزرد.

ومن الدروع المعروفة: (الدروع الحطمية) نسبة إلى حطمة بن محارب بن عمرو بن وديعة. وقيل: نسبة إلى حطم أحد بني عمرو بن مرثد من بني قيس بن ثعلبة. و(الدروع السلوقية)، هي نوع آخر من الدروع المشهورة، يقال إنها نسبة إلى سلوق وهي قرية باليمن عرفت بدروعها. ومن الأدوات التي عرفت في الجاهلية (البيضة)، وهي غطاء يوضع على الرأس لحمايته من ضربات السيوف والحجارة والعصي وما شابه ذلك. وهي مصنوعة من الحديد أو من الجلود الثخينة.

وأما (المجن) و(الترس) و(الدرقة)، فبمعنى واحد، وهي لوقاية الجسم من ضربات السيوف. ويصنعها العرب من الجلود في الغالب.

ومن عادات العرب في الحروب إنذار من يريدون محاربتهم. كأن يقولون لمن يريدون محاربته: إننا ننذرك بحرب. وهم يفتخرون بذلك، إذ يرون أن الإنذار بالحرب من سيماء القوة والشجاعة، ومن علاقات عدم المبالاة بالعدو. وأن المباغتة من علاقات الجبن والضعف. وقد ينذرون عدوهم ويتواعدون معه على الالتقاء في زمن معين وفي مكان معين للحرب. فإذا جاء الأجل التقوا في المكان المعين وتحاربوا فيه.

وتبدأ الحرب بإعلان حالة النفير: أي حالة التجمع والتهيؤ للقتال أو الذهاب إلى الحرب. ويكون ذلك بالتبويق، أي بالنفخ ببوق من معدن أو قرن حيوان أو آلة من خشب، أو بدق الطبول والدفوف أو بضرب أعواد من خشب، أو بالصياح لإعلام الناس بدنو عدو أو ظهور خطر أو استعداد للقيام بغزو ما، فيتجمع عندئذ كل قادر على القتال متمكن منه، حاملاً معه كل ما يحتاج إليه من معدات للقتال، راكباً أو

١- جواد علي: ٥/٤٢٩-٤٣٠.

راجلاً، لأخذ دوره فيه، والقيام بالعمل الذي يوكل به إليه. وقد يلحق النساء بالمقاتلين، فيقمن بإعداد الطعام لهم وما يحتاجونه من خدمات. وليس لهؤلاء المقاتلين من أجور ومرتبات غير الغنائم التي تصيبهم والأسلاب التي تقع في أيدهم، فتكون ملكاً لهم، لأن القتال واجب على كل مواطن متمكن محتم عليه، والامتناع عنه جبن ومخالفة لقوانين المجتمع وأعرافه.

وللجيوش ألوية ورايات يحملها أشجع المقاتلين والمعروفون بصبرهم على القتال. وإذا قتل حامل الراية، قام آخر الشجعان بحملها. ويستميت المقاتلون في الدفاع عن رايتهم، فسقوط الراية على الأرض أو في يد العدو، معناه هزيمة أصحابها، وعجزهم عن القتال، وخور عزيمة المقاتلين عن القتال في النهاية، وتلك أمارات الهزيمة والفرار.

وكانت لقريش راية يحتفظون بها ويحاربون تحتها اسمها (العقاب) وهي راية قريش، ولم تكن قريش بدعاً في ذلك، فقد كانت للقبائل وللحكومات رايات أخرى، يتوارثونها ويحافظون على تسميتها، وتحتفظ بها أسر خاصة أو سادات قبائل، تعتز بذلك، وتعدّها من أعظم درجات الفخر والتكريم.

ولأهمية القائد في المعارك، كانوا يحيطونه بحرس، ويجعلون أكثر ثقلهم حوله. ويكون موضعه في القلب في الغالب، ليشرف على القتال، تحميه المؤخرة من الخلف والمقدمة من الأمام، ويوضع اللواء عنده، ويحمل بين يديه. وكان المسلمون يحملون (العَنزَة) بين يدي الرسول، وربما جعلوها قبله[1].

ويستعين القادة بأدلاء ليقدموا لهم المعلومات عن الطرق الموصلة إلى المواضع التي يريدون مقاتلة أصحابها بها، أو للسير في مقدمة قافلة الجيش للوصول إلى المكان المطلوب. وللدليل أهمية كبرى في القتال ولذلك استعان بهم المحاربون.

وقد فعل الجاهليون ما تفعله القوى المتحاربة في كل وقت من اللجوء إلى التأثير في خصومهم باستخدام (الحرب النفسية). أي التأثير في نفوس الخصوم حتى يشعر أنه دون خصمه، كأن يتظاهر بأن عدده أقوى وأكثر عدداً من عدد خصمه، بتوسيع رقعة معسكره وإيقاد النيران الكثيرة وإحداث أصوات مرتفعة، تشعر

١- الجاحظ: البيان والتبين ٩٥/٣.

المتلصص للأخبار أن الجيش جرار، وإن عدده كبير. وبذلك يخافه خصمه وترتعب نفسه[1].

ولما نزل المسلون (حمراء الأسد)، (كانوا يوقدون تلك الليالي خمسمائة نار، وذهب صوت معسكرهم ونيرانهم في كل وجه، فكبت الله تعالى عدوهم)[2].

وأكثر ما يغزو العرب عند الصباح، ويسمون يوم الغارة يوم الصباح. وسبب ذلك أن الناس يكونون مستغرقين في هذا الوقت في نوم لذيذ، لذلك تكون الغارة فيه مفاجأة مفزعة لهم.

وقد عرف قادة الجيوش أهمية طبيعية الأرض في كسب النصر وفي الدفاع. لذلك كانوا إذا تحاربوا تسابقوا إلى مواضع الماء لتكون في مؤخرتهم حتى يستقوا منها ويمنعوا العدو من الشرب منها، كما كانوا يضعون الشمس عند ظهورهم حتى لا تؤثر على أعينهم، ويرتقون المرتفعات حتى يصعب على العدو الارتقاء إليهم بفعل الحجارة أو النبال التي ترمى عليه.

ولتقوية معنويات المحاربين في أوقات العسر والخطر، ولبعث الحمية في نفوسهم يقيد الرؤساء أنفسهم بقيود، مجتمعين أو فرادى، ثم يعلنون أنهم لا يبرحون مكانهم هذا حتى يهلكوا أو يربحوا.

وقد كان كثير من المحاربين يأخذون زوجاتهم وذراريهم معهم في المعارك، ينقلونهم معهم وكأنهم ذاهبون إلى سفر أو رحيل إلى بلاد جديدة. وحكمتهم من ذلك أن الرجل منهم إذا رأى خلفه أهله وماله، قاتل عنهم. ولعلهم كانوا يستعينون بهم في جمع الغنائم والأسلاب وحراسة ما يقع في يد المحارب من أسرى.

وكانوا يضعون أسرهم وإبلهم ومؤنهم وظعائنهم في مؤخرة الجيش، وذلك حتى تكون في مأمن من العدو وبعيدة عنه، وتكون بذلك مدعاة للنصر[3].

وقد أشركوا أصنامهم معهم في الحروب، أشركوها معهم لتمنَّ عليهم بالنصر والتأييد.

١- جواد علي: ٤٣٨/٥.

٢- نهاية الأرب: ١٢٧/١٧.

٣- مقدمة ابن خلدون، ص ٢٧١-٢٧٢.

ونظراً إلى ما للمنزلة الاجتماعية من أهمية كبيرة في المجتمع العربي، لذلك كان الشريف يسأل من يريد أسره عن اسمه ونسبه، حتى إذا وجد أنه من العبيد والموالي أبى الاستسلام له، لأن في استسلام الرجل لمن هو دونه في المنزلة والمكانة مذلة كبرى وإهانة، ولهذا كان الرجل الذي يشعر أنه في وضع حرج وأنه مأسور لا محالة يبقى يراوغ خصمه ويحاول الإفلات منه ومن أسره جهد مكانة حتى أخر نفس له، وقد يسأل شخصاً آخر يرى عليه أمارة الوجاهة والشرف بأن يأسره خشية الفضيحة والعار من وقوعه أسيراً في يد عبد جلف، أو صعلوك لإمكانه له في المجتمع[1].

ولم تكن (المثلة) بقتيل الحرب أو بالأسير محرّمة في قوانين ذلك الزمان فقد كانوا يمثلون بقتلى الحرب وبالأسرى بتقطيع أجزاء جسمهم، وتشويه الجسم. يفعلون ذلك بالأسير حتى يموت، وهو يشاهد أعضاءه تقطع قطعاً من جسمه.

والقاعدة في الغزو والحروب والغارات، أن القاتل يأخذ سلب المقتول. يأخذ ما يجده عنده، وقد أقر ذلك في الإسلام، فجعل السلب للقاتل لا ينازعه في ذلك منازع، إن ثبت أنه هو القاتل.

والحروب من أهم الموارد الممونة للرقيق عند الشعوب القديمة، وفي جملتهم الجاهليين. فقد كان المنتصر يتخذ من يقع في يده رقيقاً له، وإذا لم يمن عليه بالعفو، أو لم يتمكن المأسور من دفع فدية نفسه، صار عبداً مملوكاً لمن وقع في يده، إن شاء باعه، وإن شاء احتفظ به رقيقاً، يخدمه ما دام عبداً.

وقد عمد المحاربون إلى إحراق المغلوبين في بعض الأحيان. فقد جمع المنذر بن امرئ القيس أسرى في الحظائر ليحرقهم، فسمي أبا حوط الحظائر. وقد عرف بعض ملوك الحيرة بحرق من وقع في أيديهم من المغلوبين، أو بحرق مواضعهم وهم فيها لذلك عرفوا بـ (محرق)[2]. وقد يعمد المنتصر إلى أخذ رهائن من المغلوب لتكون رهناً لديه بالطاعة والخضوع. فإذا خاس بعهده، تعرضت الرهينة للتهلكة. وتؤخذ الرهائن في أيام السلم أيضاً. يأخذها الملوك ممن يخشونهم ومن السادات لتكون ضماناً لديهم بالطاعة وبعدم مسهم بمصالحهم.

١- جواد علي: ٥/٤٦٦.

٢- المصدر السابق، ٤٦٧.

ورسخ في عقول الجاهلية أن في وسع الكهنة التنبؤ عن نتائج الغزو أو الحروب، لما للكهنة من اتصال بالأرباب وبالأرواح المخبرة عن المغيبات وعما سيقع في المستقبل. فكانوا لذلك يسألونهم في كثير من الأحايين عن رأيهم في غزوٍ يريدون القيام به قبل الشروع به، حتى إذا باركه الكاهن قاموا به، وإلا تركوه.

ونجد في كتب الأدب وأهل الأخبار أخباراً ترجع سبب هزيمة قوم أو سبب انتصارهم إلى مخالفة أولئك القوم لرأي كاهنهم، فكانت الهزيمة، وإلى العمل برأيه، فوقع من ثم لهم النصر، لأن للكهنة علم بالمغيبات[1].

١- جواد علي: ٥/٤٦٨.